التغيير الحضاري في فكر الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي

طالبة الدكتوراه: علية صالح

كلية العلوم الإسلامية – جامعة باتنة1

الملخص:

يتناول هذا المقال "التغيير الحضاري في فكر الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي"، والذي لا شك، كان له تصوره الخاص لمنهج التغيير مستنبطا من القرآن الكريم ومن الهدي النبوي، حيث تطرق لمسألة التغيير في كثير من مؤلفاته ومحاضراته، وأفاض في الحديث عن مفهومه في ضوء علاقة الإنسان بالله، وآليات التغيير وفق منظومة سننية أودعها الله في الكون والإنسان والحياة.

الكلمات المفتاحية: التغيير، التغيير الحضاري، فكر، محمد سعيد رمضان البوطي.

Abstract:

This article discussees the civilizational change in the thought of sheikh **Mohammed Saeed Ramadan AL- BOUTI** who – certainly- has his vision of change's method driveal from the holy Quran and the prophet's leading. Where he touched on this question regarding to his writing and lectures.his concept based on the relationship between man and god, also the mechanisems of change according to the Sunnah system imposed bay god in univers, humain and life.

مقدمة:

لقد ظهرت جهود قيمة لمفكرين، ودعاة، وعاملين في الحقل الإسلامي، بغية النهوض بالمجتمعات العربية والإسلامية الغارقة في أسن الانحطاط والانهزام الحضاري، بعد أن ضيعت مهامها في تحقيق الشهود الحضاري الذي دلت جاءت به

أوامر الوحي في قوله تعالى: [**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**] (البقرة: 143)، هذا الشهود الذي يستحيل أن يتحقق ما دام المضطلع به يقبع في مؤخرة الصف. كما تكاتفت تلك الجهود للإجابة على سؤال التجديد الرائد: ما سر تخلف المسلمين؟[1]، ولماذا تقدم غيرنا وتأخرنا نحن؟ مع أننا نحوز على مادة التجديد وهو الإسلام؟. وما هي سبل التغيير وإحياء الأمة لتعود إلى سابق أمجادها، وصلتها بماضيها المشرق؟... وكان من هؤلاء العلماء والمفكرين: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، ومحمد إقبال، ومالك بن نبي، ومحمد الغزالي، ومحمد سعيد رمضان البوطي... وغيرهم كثير، ومع أن توجهات هؤلاء العلماء ورؤاهم للتغيير الحضاري اختلفت، إلا أنهم اجتمعوا على غاية مشتركة وهدف واحد هو أمر هذه الأمة، وضرورة انبعاثها من جديد.

ولأن موضوعا بهذه الأهمية إذ يكشف أطروحات مناهج التغيير والبناء في صرح الحياة الإسلامية، تأتي هذه الورقة البحثية لتفصح عن طرح لمنهج من مناهج التغيير، عند عالم فذ من علماء الإسلام ومفكريه، وهو: الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي[2] كأنموذج، لنتعرف على موقع مسألة التغيير في فكر البوطي، أوبعبارة أخرى رؤيته - رحمه الله- للتغيير؟ وكيف يعرفه؟ وكيف يجب أن يكون التغيير في منظوره؟ وما هي الآليات والكيفيات التي يتم بها صناعة الحضارة وانبعاثها من جديد؟، ولهذا فإن هذه الدراسة - المتواضعة - ستعالج الموضوع من خلال هذين المطلبين:

1- المقصود بالتخلف والتغيير عند الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي.

2- التغيير الحضاري، مقتضياته ومرتكزاته عند الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي.

المطلب الأول: المقصود بالتخلف والتغيير عند البوطي

المتمعن في مؤلفات البوطي يجده يرصد حالة التخلف التي نعيشها، محاولا أن يسلط الضوء على أسبابه، وكان قصده من ذلك أمور:

- تبرئة الدين الإسلامي مما يلصق به، بأنه سبب التخلف كما يدعي أصحاب الأيديولوجيات العلمانية والحداثية.
- التأكيد على حتمية العودة إلى الإسلام في عملية الانبعاث الحضاري.
- التركيز على التغيير الذاتي، والعناية بتهذيب النفس والسلوك.

الفرع الأول: مفهوم التخلف وأسبابه عند البوطي

أولا/ مفهوم التخلف:

عرف البوطي التخلف بقوله: ‹‹... والتخلف كلمة، تشمل كل مظاهر الضعف أو الجهل أو الفقر في حياة الأمة. فهي إذا تنحط على تفرق المسلمين وتدابرهم، وعلى استيلاب اليهود وغيرهم لأراضيهم، وعلى جمود الحركة العلمية في حياتهم، وعلى قعودهم عن تسخير ما في الأرض لمعاشهم»[3].

فهذا التعريف الذي قدمه البوطي، تضمن صور التخلف الذي تعاني منه الأمة، ووضح العقبات التي تحد مسيرة الحضارة وتجعلها تتعثر عندها ثم تراوح مكانها، ولا تجاوزها، فتتركها في حيرة بين الرجوع إلى ماضيها والتمسك به أو مواصلة المسير مشتتة الوسيلة والغاية. هذا ما يفهم من تعريف البوطي خاصة وأنه صور تخلف المسلمين بدقة، فوضح كيف أنه أتى على كل مقومات البناء الحضاري. فالضعف يفسر على عجز في لملمة الوحدة المتشظية، وكذا العجز في وسائل المكافحة والمجابهة للوافد من الاستعمار بنوعيه العسكري والثقافي، والفقر عائق صلب في مسيرة النهضة، فالبطون الجائعة والمجتمع المتشرد لا يستطيع أن يبني حضارة، ولا يستطيع أن يعين على نماء في الحركة العلمية وفي تطوير المجتمع الإسلامي لعلومه وتفتحه على النافع والجاد من علوم وفنون غيره.

ثانيا/ أسباب التخلف:

يعدد البوطي أسباب تخلف الأمة، وتداعياتها في تآكل بنيان الحضارة، وهي في نظره كما يلي:

1- فقد الاستقرار النفسي والفكري، والتشبث بأحلام الماضي التليد، مع الركود التام الذي لا يحرك ساكنا.

2- العيش تحت تأثير مركب النقص لمدة طويلة، والانبهار بمنجزات الغير المتقدم، دون السعي الجاد والتفكير في العودة إلى الدين وإحيائه – اللهم بعض الحركات الإصلاحية - لا إصلاحه[4].

3- ظهور الصراع الفكري بين التيارات المتشبثة بالماضي من جهة، وبين الرافضة للماضي باعتباره تراثا، والمتمسكة بكل جديد ولو على حساب الدين والقيم،

وبين هذا وذاك حدثت الخلخلة في العقلية والنفسية الإسلامية، وتفشت مظاهر ذلك الصراع في مناهج التربية والتعليم، وفي منابر الإرشاد والتوجيه، وهلم جرًا باقي المناصب.

4- غياب التخطيط المستوعب، وفق منهج متكامل للنشاطات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، ذلك أن ‹‹عملية التطور الاجتماعي العام، وقضايا التنمية جزء منها، لا تتحقق إلا بعون منسجم متكافئ من سائر الجهود الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، فإذا بدا أي تشاكس بين بعض هذه النشاطات، واستفحل قبل القضاء عليه، اتجه من ذلك عامل سلبي، يزداد أثره اتساعاً مع امتداده وتوغله في المجتمع، كما تزداد المساحة اتساعاً بين ضلعين لزاوية منفرجة».

5- فقد الثقة بين قطاعات الأمة، محكومين وحكاما، بل إلى حد انعدام التفاعل والتعاون بين الأطراف والفئات الاجتماعية، وهذا له دور كبير في عرقلة السبيل إلى التطور والرقي، ولهذا فإن ما كانت دعامته مكونة من جهود طرف واحد فلن يكتب له النفع العام والمستمر[5].

هذه الأسباب وغيرها، هي التي تحدد حجم الأزمة الحضارية كما يتصورها البوطي، ومن خلالها نستطيع أن نفهم إسهاماته في جدوى التغيير بالنظر إلى الحلول التي اقترحها لعلاج هذه المشكلات التي نعاني منها.

الفرع الثاني: مفهوم التغيير[6] عند الشيخ البوطي

يعرف البوطي - رحمه الله - التغيير وفق منظومة سننية كونية، كما يقرن التغيير بالفكرة القرآنية عن التغير والتبدل، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، والتي لا تخضع للتبديل أو التحويل، مهما تقادمت الحياة البشرية، أو تطورت، فالسنن الإلهية هي الناموس الذي يسير على ضوئه الإنسان. وقد ورد في كتاب الله، ما يلفت إلى كون التغيير نافذا في الخلق، وأن إرادة التغيير أيضا لها شروطها وسننها، ومن الآيات التي تشير لهذا المعنى الذي سقناه:

1- قول الله تعالى: [**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**] (الرعد: 11).
2- وقوله عز وجل: [**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**] (الأنفال: 53).

ويفسر البوطي هذه الآية ليحيلنا إلى مفهوم التغيير كما فهمه من الآية القرآنية، فيقول: ‹‹إن هذا النص القرآني الجامع يقول: لن يرفع الله حالة أمة أو جماعة من وهدة التخلف والضياع، حتى تسمو بنفسها وذاتيتها إلى مستوى التزكية النفسية والخلق الرشيد، ولن يهوي بأمة أو جماعة من صعيد الأمن والقوة ورغد العيش إلى وهدة الشقاء والضياع، حتى تتدنى بنفسها إلى هاوية الفساد والأخلاق الذميمة››[7].

فهذه الآية القرآنية تضمنت سنة إلهية نافذة في الكون، وأن التغيير مصدره ذاتي داخلي، وما لم يتغير المجتمع في أخلاقه وتعاملاته، ويشحن طاقاته العقلية والفكرية بالمعاني الإيمانية والمقاصد الربانية، فإنه سيبقى في مؤخر الركب، وهذه قاعدة ومعيار ثابت ينطبق على كل الأزمان والأمكنة، مهما بدا لنا من تغير البيئات والأفراد والمجتمعات المتعاقبة. فقيام الحضارات وأفولها محكوم بمدى نفاذ سنة التغيير. كما نفهم من مفهوم التغيير عند البوطي، كيف أنه بين أن عملية التغيير تكون بالإيجاب كما تكون بالسلب، وأن المتحكم في ذلك هو ميولات النفس وعنفوانها، ومدى التحكم فيها تربية وشحذا.

هذا هو ما يقصده البوطي من كون التغيير المنشود الذي يبتغى منه الإصلاح، وإعادة الريادة الحضارية، يكون بالوعي العميق لسنن التغيير في الكون، والتفعيل الصائب لمكونات الحياة لتؤدي دورها الحضاري المطلوب، وهو يصرح بهذا حين يذهب إلى أن: ‹‹كلا من ظاهرتي الإقدام والإحجام، أو التقدم والتخلف، في تاريخ المسلمين بدءا من بعثة الرسول إلى يومنا هذا، إنما تم تحت سلطان هذه السنة الإلهية القائلة: **[إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ]**››[8].

إذن فالتغيير عند البوطي يهتم، أو يتعلق بثلاثة مقومات:

1- الفهم الجيد للدين في أصوله، ومقاصده الكبرى المبثوثة في القرآن والسنة.

2- الفقه الحقيقي للسنن الكونية.

3- فهم النفس البشرية، وسبر أغوارها، ومعرفة الحالات التي تتقلب فيها بين الاطمئنان، والتيه، والتململ، وغيرها من الانفعالات، إما مكتسبة أو فطرية غريزية.

المطلب الثاني: التغيير الحضاري، مقوماته ومرتكزاته عند البوطي:

عندما يتكلم البوطي عن التغيير فإنه يتحدث عنه بصفة شمولية، مجملة، باعتبار أن مناحي الحياة متكاملة ومتشابكة، ذلك أن التغيير الحقيقي هو الذي إذا مس جانبا احتاج إلى أن تنقاد وراءه باقي الجوانب، ولهذا فإن نظرته للتغيير الحضاري، يفهم منها ضمنيا، نظرته لباقي الجوانب.

الفرع الأول: مفهوم الحضارة عند البوطي

لقد اهتم الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي بموضوع الحضارة، وبما كتب في هذا الشأن، خاصة مؤلفات مالك بن نبي كشروط النهضة مثلا، فتعجبه طريقة مالك بن نبي في تحليل الحضارة وسبل النهوض عندما يدرسها وفق الفكرة الدينية[9]، ووفق سنن التغيير القرآني. كما يهتم البوطي أيضا بفكر محمد إقبال الذي يقترب كثيرا من فكر مالك بن نبي، الذي يحض على التربية الإيمانية مع مراعاة الجوانب المستجدة في الحضارة الغربية ومواكبتها، دون الذوبان في أتونها، أي أن عملية المواكبة تتم بدقة وغربلة النافع من السيء والضار. كما يتوافق طرح البوطي للتجديد مع ما عالجته مدرسة عبد السلام يسين في رؤيتها للتجديد - باعتبارهما يشتركان في الخلفية الصوفية والتربوية - مع فارق واحد هو رؤية الموقف السياسي والموقف من النظام الحاكم، فقد دخلت مدرسة عبد السلام يسين السياسة كجماعة معارضة (العدل والإحسان) وتمازجت مبادئها بين إحقاق العدل الاجتماعي في الدولة وبين الإحسان الذي هو مرتبة في التزكية والرقي النفسي والوجداني، أما البوطي فنظرته للسياسة والأحزاب والتنظيمات فمعروفة وهي الرفض القاطع لتسييس الإسلام[10].

ويعرف البوطي الحضارة وفق سياقين:

أولا/ السياق اللغوي:

يجمل البوطي تعريف الحضارة لغويا بأنها: ‹‹مدار الحضارة على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها، إلى حياة العمران وتعقيدها (...) والحضارة تزداد اتساعا وعمقا، كلما ازدادت بأصحابها بعدا عن طبيعة البداوة ومستلزماتها، وإيغالا في المجتمع العمراني، وتفاعلا مع آثاره ونتائجه››[11].

ثانيا/ السياق الاصطلاحي:

للبوطي رؤيته الخاصة في تعريفه للحضارة، فهو يعرفها وظيفيا ، أي حسب عناصرها وأدوار كل عنصر منها، وتحليليا أي على حسب فلسفة كل عنصر وماهيته، فيعرفها بأنها: ‹‹ثمرات الجهد الذي يبذله الإنسان، لاستغلال المكونات التي من حوله، في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنساني، وبث أسباب الخير والسعادة فيه››.[12]

فالحضارة حسب البوطي هي الاستخدامات المثلى للمسخرات التي يجدها الإنسان حوله من قدرات وطاقات، كما أن اضطلاعه بتفعيلها وتحريكها ليولد بها مقومات الحياة الراقية وفق منطومة قيمية وفكرية تمكن له أسباب النضج والرفاهية والترف الحضاري.

ويقدم البوطي تعريف الحضارة على أساس تحليلي، فيركب معادلة الحضارة من عناصرها، التي تمثل الحقائق الإسلامية الثلاث: الإنسان، الحياة، والكون، أي وفق المعادلة التالية: الحضارة = الإنسان + الحياة + الكون. وهذه العناصر يجب أن تعمل في تكاتف وتكامل، وأن يشملها التغيير وفق السنن الإلهية المبثوثة فيها، على أن يكون عنصر الإنسان هو العنصر الفاعل فيها لأنه مزود بالعقل والبصيرة التي بواسطتها ينمي أفكاره ويطورها... وهو ما يعرف بعملية البناء الحضاري.

ثانيا/ تعقيبات البوطي على تعريفات العلماء للحضارة:

هناك الكثير من المفكرين والباحثين الذين حاولوا وضع مفهوم منضبط للحضارة، وهذه المساعي كانت في الفكر الإسلامي (ابن خلدون، ومالك بن نبي كنموذجين)، كما كانت في الفكر الغربي (شبنجلر وتوينبي، وغيرهما). لكن الأمر الذي يدعونا للتوقف باعتبارنا نملك دليلا حضاريا هو المنهج القرآني، هوتعريف الفيلسوف (أوزفالد شبنجلر) للحضارة، على أنها كائن من كائنات التاريخ وبالتالي فإنها تخضع لقانون الطبيعة، وهو أن لها دورة حياة؛ ميلاد ثم أوج وقوة، ثم ذبول وموت[13].

يعيب البوطي على المفكرين المسلمين، وقد درسوا القرآن، وتوغلوا في مفاهيمه، وعرفوا نواميسه، أن ينظروا إلى الحضارة كما نظر إليها الفيلسوف " شبنجلر" - وقد عرضنا تعريفه للحضارة آنفا -، فيقول البوطي مقرعا: ‹‹... فأي عذر

لهم أن يحبسوا أنفسهم (تقليدا لأعدائهم) من حديث الحضارة الإسلامية في تلك البحوث الوصفية الميتة؟... ثم أي عذر لهم في أن يبحثوا عن موجبات قيام صرحهم الحضاري الأغر، ثم عن أسباب انهياره وتحوله إلى أطلال، فلا يجدوا أمامهم إلا آراء أمثال توينبي وشبنجلر»[14].

فيُخَطِّئُ البوطي ما توصل إليه هذان المفكران من أن الحضارة، لها دورة حياة: ميلاد، شباب ، وموت. كما يعتبر أن ما فهمه الباحثون من أن كلام ابن خلدون عندما قال "إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده" مطابق لهذا الطرح، فهم عليل. والأصح أن الحضارة إذا لم تجد مقوماتها، تهرم وتشيخ، وتنتقل إلى مكان لآخر توفر فيه جوها الملائم[15].

إن هذا التعقيب يدل صراحة على أصالة فكر البوطي، كما يعبر عن رؤيته لدراسة التغيير الحضاري، من خلال ما هو مبثوث في القرآن، من حلول ومناهج في سبيل ذلك، ولهذا فهو يرى أن أمثال هؤلاء المفكرين، لم يحللوا شيئا من قضية الأزمة الحضارية بقدر ما زادوا بلاء على الأمة - على حد تعبيره - ومشكلة على الثقافة الإسلامية عند اعتمادهم على التفسيرات الغربية الوضعية، إلا أنه - رحمه الله - يستثني من هؤلاء الباحثين، مالك بن نبي - رحمه الله -، بل ويعتبره الوحيد الذي بحث في الحضارة الإسلامية عن طريق النبش في جذورها وربط صلة الحضارة بنفوس مريديها. ومع هذا يعتبر البوطي أن ما ذهب إليه مالك بن نبي في معادلته عن الحضارة: الحضارة = إنسان + تراب + وقت مع الفكرة الدينية التي تجمعها جميعا، أمرٌ يحتاج إلى الدقة عند الحديث عن الحدود والدلالات، فهو حتى وإن كان يقصد بالتراب الأرض، فهذا لا بد له من توسيع أكبر، فلا بد أن يكون التراب يعبر عن الكون، ولا يتحيز في تصور ضيق. كما ينقده في التعبير بالزمن والوقت، بدلا من لفظة الحياة لأنها أشمل وأفسح. وغير بعيد عن مالك بن نبي، ينقد الشيخ البوطي ما ذهب إليه الشيخ أبو الأعلى المودودي في تعريفه للحضارة ، في كتابه: "الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها"، حين اعتبر الحضارة مجموعة من المبادئ والعقائد والأفكار والأصول التربوية التي تثمر لونا من الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة. ووجه الخلل في هذا التعريف: أنه يجعل الحضارة متصلة بالأفراد تزول بزوالهم، لا متصلة بالأرض والمكان. وهذا التعريف حسب البوطي، لا يتوافق مع شيء من نظريات علم الاجتماع ومصطلحاته[16].

الفرع الثاني: مقتضيات التغيير الحضاري عند البوطي:

لقد استشعر الشيخ البوطي حجم أزمة التخلف التي تعاني منها الأمة الإسلامية، فبادر على غرار غيره من مفكري وعلماء النهضة، للنبش في جذور هذه الأزمة، وقد توصل إلى أن مشكلة المسلم مشكلة حضارية، شارك في إيجادها عدة عوامل ومسببات، ولهذا بادر إلى إخضاع الأزمة إلى التمحيص والتحليل، فيرى البوطي أن البناء الحضاري يجب أن يكون منطلقا من مقومات صلبة، هذه المقومات بينها القرآن الكريم الذي هو خطاب الله للبشر والإنسانية جمعاء، ومنها يتم بناء الحضارة من جديد، وسنحاول بيانها فيما يلي:

أولا/ تحقيق الإنسان لعبوديته لله تعالى:

ويكون بتطبيق أوامر الله التي تحقق له الخير والسعادة، ومن ذلك أداء الوظيفة الأولى التي كلف بها، وهي الاستخلاف وعمارة الأرض بمعناها الشامل، ومن ذلك إقامة مجتمع إنساني مسلم، وإشادة حضارة إنسانية شاملة، ليكون بذلك الإنسان مظهرا لعدالة الله تعالى وحكمه في الأرض، ولكن لا بالقسر والإجبار، بل بالتعليم والاختيار، وهذا هو ما دل عليه صريح الآي القرآني الذي يبين معنى استخلاف الإنسان في الأرض تحت وصف العبودية المطلقة، قال تعالى: [**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**] (هود: 61)، فالاستعمار يقصد به إعمار الأرض وخدمتها لتحصيل المنافع والرقي في مدارج المدنية والتحضر، وكذلك قوله تعالى: [**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**] (البقرة: 30)، فهذه الآيات تضمنت تعريفا بمهمة الإنسان الأساسية التي يجب عليه النهوض بها، وهي عمارة الأرض بكافة معاني العمارة (المادية والعلمية والاقتصادية)، شريطة أن تكون حافلة بمعاني العبودية والإخلاص لله تعالى. وقد ربط المنهاج القرآني عمارة الإنسان للأرض بشرط التزكية الأخلاقية والنفسية، لأن شذوذات النفس ورعوناتها أول عائق في طريق الخلافة والاستخلاف. والتزكية النفسية تكون بالسبل التربوية والرياضية، وامتثال المبادئ الاعتقادية وممارسة النسك والعبادات التهذيبية وفضائل الأخلاق[17].

ثانيا/ التعرف على مكونات الحضارة:

يكون ذلك بالتعرف الدقيق على المتغيرات التي تم جمعها في معادلة الحضارة، لأن جمعها لا يعني تحقيق التحضر بالضرورة، ولهذا يقول الشيخ البوطي: ‹‹إن عملية إنشاء الحضارة، إنما هي في الحقيقة صورة مكبرة جدا، لأي تركيبة

كيميائية يعكف على تحضيرها أي متخصص، من مجموعة مواد وعناصر معينة، فكما أن نجاح هذا التركيب فيما يراد أن يتحول إليه، متوقف على معرفة دقيقة لطبيعة تلك المواد وخصائصها وشواردها، فكذلك نجاح السعي إلى إنشاء الحضارة، متوقف على معرفة تامة بطبيعة موادها وعناصرها الأولية، معرفة لا يشوبها أي خطأ أو وهم» [18]، فالتركيب المتناسق والمثمر الذي يصل بالإنسان للحضارة والسعادة، هو الذي يتم عن طريق معرفة حقة بعناصر الحضارة الثلاثة التي هي:

1- معرفة الإنسان لهويته، وأصله، ومآله.

2- إدراك أسرار الكون ونواميسه.

3- فقه معنى الحياة (الوقت)، وقيمتها، ومصدرها وعاقبتها[19].

ثالثا/ إرادة التغيير:

يكون التغيير أولا بوجود رغبة عارمة في النفس الإنسانية، وهي الإرادة في التغير والتبدل نحو الأحسن والأفضل. ويرى البوطي أن هناك فرقا كبيرا بين الرغبة في التغير، الذي هو جامع مشترك في التغيير، وبين الرغبة في سلوك سبل التغيير، وهذا هو ما ينقص العالم الإسلامي اليوم، ينقصهم السير في السبل التي يستطيعون بها أن يطوروا أنفسهم، وأن يغيروا مسارهم من الأسوأ إلى الأحسن والأفضل. وهذه هي المسؤولية التي حملها الله الإنسان، فللإنسان مطلق الحرية أن يتحرك في التغيير نحو الإيجاب ونحو السلب، حسب إرادته وسعيه، وحسب قربه من الله أو بعده عنه. وعلى قدر ذلك يتحدد نوع التغيير، إذ العلاقة فيها طردية، ومتى ما اشتعلت الرغبة في الإصلاح وتبديل الأوضاع جاء العون الإلهي في سبل التغيير ونتائجها. ومن ذلك التطور المادي والاقتصادي....[20].

كما أن الإرادة، لا بد لها من أسباب تقدم، وتضحيات جسام، وكدح وسعي، وهذا يكون بالعمل والسعي، قال الله تعالى: **[وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ]** (التوبة: 105). وهي سنة إلهية، فمتى ما جد الإنسان العامل في سبيل النهوض، تحقق له ما يسعى إليه مثابرا، سواء أكان مسلما أوكافرا، لأنه تماشى مع سنة كونية فـ«ما من شخص أو أمة تبذل جهدا ابتغاء الوصول إلى ثمرة منه في الدنيا، إلا وفي سنة الله وقضائه ما يستوجب وصول هذه الأمة أو هؤلاء الأشخاص أيا

كانوا إلى ثمرات جهودهم»[21]، وهذا مصداقا لقوله تعالى: [**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ**] (هود: 15).

رابعا/ العمل الجماعي المنسق:

يرى البوطي أن التجارب الفردية، حتى وإن كان لها صدى إلا أنه قريب المدى، هزيل الثمر. ولهذا لا بد للنهوض بالحضارة، أن يكون مشروعا جماعيا، يشترك فيه أكثر من طرف، المجتمع بجميع شرائحه، والحكام والمسؤولون بكافة قطاعاتهم، ‹ ذلك لأن أي تحرك نحو التحرر من التخلف وأسبابه، والصعود في مراقي الحضارة، إنما يعتمد على مجهود جماعي متضافر(..) لذا فإن كل ما قد يوصف لهذا المجهود من علاجات وأسباب، يجب أن يناط بالهيئة الاجتماعية العامة، متمثلة في أغلبية الناس، على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم»[22].

خامسا/ القضاء على التجزؤ وأسبابه:

ويكون ذلك بأن نهرع إلى لملمة الأمة، والعمل على إعادة وحدتها، فكما أن الشتات سبب التخلف، فالوحدة هي علامة البدء في صعود سلم التقدم، وجمع الكلمة، وهذا يكون بملء الفراغ الرهيب الذي تعاني منه الأمة، وخدمة القيم والمبادئ، والمعتقدات بترسيخها، وتعزيزها حتى تغدو جامعا مشتركا للأمة كلها، فمتى ما تحقق الجامع المشترك، أمكن الحوار في ظل الاختلاف، والاجتماع لدرء الشقاق والنزاع.[23]

الفرع الثالث: مرتكزات منهج التغيير عند البوطي

المتمعن لتحليلات البوطي لمسألة التغيير الحضاري، يجد انه يقوم عنده على ثلاث ركائز، هي:

أولا/ ركيزة الوحي:

القرآن الكريم يحوي منهجا متكاملا لصناعة المسلم لحضارته، بما يتضمنه من ‹‹سبل تسخير الله الكون لعباده، ويبين لهم الطرق الكفيلة بجعل قيادة الدنيا في أيديهم، كما يظل يعرفهم على المنزلقات السلوكية التي تعرضهم للضياع، وتقصيهم من مستوى القيادة في عمارة الأرض، ثم يحذرهم من الاتجاه إليها، ويهددهم إن هم تساهلوا فانحرفوا عن الجادة بالوقوع في مغبتها وسوء عاقبتها»[24].

كما دلت السيرة النبوية في أقوال المصطفى وأفعاله، على المنهاج النبوي في البناء الحضاري، فقد كانت سيرته ومغازيه وفتوحه ومعاهداته، وطريقة تعاملاته مع رعيته ومع الآخر بمثابة الدستور الذي تنتظم فيه أسرار صناعة الحضارة المشرقة، فقد بنى ﷺ بعد هجرته في أرض المدينة المدنية والحضارة التي جعلت المسلمين ينعمون بفيئها ردحا من الزمن، إلى أن ضيعوا مقومات تلك النهضة الحضارية، فأفلت حضارتهم لما اعتراها من أسباب ومسببات السقوط والتقهقر، عندما ضيعت البوصلة (المنهاج النبوي)، وفي هذا السياق يقول الدكتور الطيب برغوث: ‹‹إن دراسة سيرة رسول الله ﷺ وحركته، في مدة ثلاثة وعشرين عاما، هي في جوهرها دراسة في تشكيل حضارة، وبناء نموذج حياتي جديد (..) فلم يكتف عليه الصلاة والسلام بوضع مخططات التغيير، وبرامجه، ومناهجه، وكيفياته، وموجباته، بل ساهم في البناء حتى وصل به إلى المرحلة التي أكمل فيها (مهمة البلاغ المبين) التي أمره بها الخالق عز وجل»[25].

ثانيا/ ركيزة التاريخ:

التأمل في سنن الله في الحضارات المتعاقبة وفقه أسرار صعودها وهلاكها؛ كسنة التغيير، وسنة التدافع، وسنة النصر، فقوله تعالى: **[وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ]** (الحج: 40)، وقوله أيضا: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ]** (محمد: 07)، والنصر الذي قصده الله عز وجل في كتابه هو النصر بمختلف معانيه، كالنصر على أعداء الدين الذين يتربصون بالإسلام شرا، والنصر في مساعي التعاون الإنساني ووحدة القوى الإسلامية، ونصر الإبداعات الحضارية، وتحقيق أسباب القوة والغنى، وبلوغ أوج المعارف والعلوم.... وقد تحقق في تاريخنا الإسلامي التغيير الاجتماعي والقيمي والتصوري، وانتشى المسلمون بالنصر الإلهي، وأقاموا صرح الحضارة الإسلامية التي ابتدأت من رقعة بدائية بسيطة في بوادي الجزيرة العربية، ثم تفرعت لتصبح حضارة لها أمجادها وصنائعها ردحا طويلا من الزمن. وهذا لما روعيت سنن الله في الكون، وفقهها الناس حق الفقه، وهب الإنسان إلى الانتصار لدين الله، لا بالعصمة من الذنوب ولكن بالإخلاص في الإيمان بالله وجهاد النفس والمال، وتحكيم شرع الله، ثم بالتزكية المستمرة والتوبة النصوح من الأخطاء، لأن هذا النجاح تحقق بعد جهود شاقة وجهاد وتضحيات جسام في سبيل البناء الحضاري.

ولهذا فإن جل حالات الأفول التي تراجعت فيها الحضارة الإسلامية يراها البوطي، خاضعة لتجاذبات سنة النصر الطردية، فمتى ابتعد المسلمون عن شرع الله والانتصار لدينه تقاذفتهم الأهواء ودبت فيهم عوامل الاستكانة وما يتبعها من خمول فكري وغيره.. وكذلك الأمر في كافة شؤون الحياة الإنسانية. وقد بين القرآن عاقبة تعطيل النظر في هذه السنة التاريخية والوظيفية حين قال: **[خَلْفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا]** (مريم: 59). فالخلف بسكون اللام عكس الخلف بفتحها، التي تعني القرون الصالحة اللاحقة بسلفها ، أما الخلْف بسكون اللام فتعني القرون الطالحة والفاسدة من البشر الذين ضيعوا حضارتهم باستجماعهم لأسباب الفساد الذي صوره القرآن في أمرين: تضييع الصلاة، والصلاة تعني الدين، واتباع شهوات النفس ورغائبها، أي الجري وراء المغريات والترف الزائد الذي يأتي على الحضارة من أساساتها. فلما اجتمع هذان السببان استحق المجتمع الإنساني الفاسد الانهيار الحضاري، والهلاك الدنيوي والأخروي[26].

والخلاصة أن البوطي ينوه على دور التاريخ في فهم النفس البشرية، وحملها على التغيير، من خلال الاستعانة بالتاريخ ودراسته، دراسة جادة وموضوعية، نستعرض فيه وقائع الأمم وحياة الشعوب، وتجارب الدول... ونطلع على نماذج الشقاء والسعادة. لنأخذ منها العبر والفوائد[27].

ثالثا/ ركيزة النفس:

وهذا أقرب ما يكون دعوة للعودة إلى المنهج الفطري، الذي يكون بالتزكية والتربية الروحية والتربية الإيمانية المترفعة عن باطن الإثم، ويكون التغيير ههنا لا يدور حول محور المادة، بل يدور حول محور النفس، ومتى ما أصلح الإنسان حال نفسه، مكن الله له المادة وسخرها له، وجعل أنظمة الكون تسير وفق رغائبه. هذا إذا كان التغيير نابعا من الأعماق لا من السطح. فالعناية بالنفس هي السبيل الأول لعودة المسلمين إلى سابق حضارتهم، لأن العمل الإسلامي الذي يغفل عن تهذيب النفس من الكدورات والأطماع الدنيوية، عمل يهتم بالشعارات التي في ظاهرها تخدم عودة المجتمع الإسلامي الأمثل، لكنها في حقيقتها لا تعبر عنه. لأن كل سعي للنهوض بالأمة بمنهج إسلامي لا بد أن يبتدئ. بمحرك التغيير الذي هو النفس، فيهذبها، ويصقلها على القيم والفضائل، ثم بعد أن يتأكد من ذلك يخوض في حركته ونشاطاته الإسلامية[28].

خاتمة:

من خلال هذا العرض، نتوصل إلى النتائج التالية:

1- التخلف عند البوطي أزمة متعددة الأجنحة؛ أقواها وأعتاها ضراوة، هو التخلف الأخلاقي والنفسي، ولهذا فإن منهج التغيير الحضاري عنده هو منهج تربية وإصلاح، وعناية بالنفس.

2- التغيير عند البوطي له تصور منضبط، في مفهومه، وكيفياته، لكنه مقرون بمكون العرفان الصوفي، والتزكية الروحية، التي هي من صميم التوجه الفكري للبوطي.

3- يشدد البوطي في منهجه في التغيير الحضاري، على قضية التعرف على الذات الإنسانية وتحسس أماكن الخلل فيها، فمعرفة طبيعتها وتحليلها وفق سياقها التاريخي، يخفف من وطأة مشروع النهوض المتعب، ويذلل السبيل له..

وكحوصلة لبحثنا ، ارتأينا أن نقتبس كلام البوطي الجامع لما ابتغينا توضيحه في هذا المقال، لنختم به مقالنا، حين يقول:

‹‹سبيلنا إلى النهوض من وهدة التخلف يبدأ بتنمية هذه المعارف الإنسانية بدءاً باللغة وحل مشكلاتها وترقية آدابها الأصلية وترسيخ جذورها في الأذواق والنفوس، إلى التاريخ واستخراج صورة حقيقية (غير مشوهة) عن علاقة هذه الأمة بماضيها، مع تقويم ذلك الماضي بدون تبديل ولا تغيير، إلى الدراسات الشرعية والقانونية وبسط موازين العدالة في المجتمع، إلى الأخلاق والتربية وتلمس جذورها الإنسانية البعيدة، إلى تلك الدراسات الهامة المتعلقة بنواميس الكون وقوانينه وما وراء هذه النواميس والقوانين››[29].

الهوامش:

(1) لقد ألف في هذا العنوان (تأخر المسلمين) عدة مجددين وخيرة مفكري هذه الأمة، فكتب عنه الأمير شكيب أرسلان (لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟)، والشيخ أبو الحسن الندوي (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي (من المسؤول عن تخلف المسلمين؟)، والشيخ محمد الغزالي (سر تأخر العرب والمسلمين)... وهذا يدل على انهماكهم في الأزمة الحضارية التي تعاني منها أمة الإسلام، واجتهادهم في العمل على إيقاظها من رقادها الثقيل.

(2) الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، عالم سوري من أصول كردية، ولد عام 1929م بجزيرة بوطان (ابن عمر حاليا) في نقطة التلاقي بين سوريا وتركيا، نشأ في كنف والده العالم الفقيه الشافعي والعارف المتصوف "ملا رمضان"، كما درس على يد الشيخ حسن حبنكة الميداني. زاول دراسته الثانوية ثم الجامعية، و نال شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر الشريف. تميز بموسوعية فريدة في زماننا، فهو أديب وفقيه وأصولي ومتكلم وداعية... يعتبر قامة من القامات العلمية في العالم الإسلامي، له أزيد من خمسين كتابا في مختلف الفروع العلمية، أهمها: كبرى اليقينيات الكونية، فقه السيرة، شرح الحكم العطائية... أما وفاته فكانت في خضم تدهور الأوضاع الأمنية في سوريا، فاغتيل الشيخ البوطي إثر تفجير انتحاري في جامع الإيمان حين كان الشيخ يلقي درسا في التفسير، وهذا يوم 21 مارس 2013م، رحمه الله تعالى. (المعلومات مأخوذة من موقع نسيم الشام).

(3) محمد سعيد رمضان البوطي، من المسؤول عن تخلف المسلمين؟ سلسلة أبحاث في القمة، العدد 8، مقدمة الكتاب. ص2.

(4) للبوطي تحفظ شديد من لفظة إصلاح الدين ، و موقف ناقد بشدة لحركة الإصلاح و النهضة التي نادى بها الأفغاني، فهو يعارض هذه المحاولة النهضوية التي خرمت نسيج الدين لا خدمته و أصلحته، و ما كان الدين يوما فاسدا حتى يحتاج إلى الإصلاح – على حد تعبير البوطي - ، للاستزادة ينظر كتب البوطي التي تناولت هذه القضية مثل، مقدمة كتابه فقه السيرة، و كتاب كبرى اليقينيات الكونية حين يتحدث عن المعجزة. و غيرها...

(5) من المسؤول عن تخلف المسلمين؟ محمد سعيد رمضان البوطي، سلسلة أبحاث في القمة، ص 12 وما بعدها.

(6) لأن مصطلح التغيير لصيق بالعلوم الاجتماعية، و لهذا يدخل كل أنواع التغيير تحت معنى التغيير ويطلق عليها التغيير والإصلاح الاجتماعي، باعتبار المجتمع الذي هو جماعة من الأفراد هو العنصر الفاعل في التغيير الحضاري.

(7) محمد سعيد رمضان البوطي، من سنن الله في عباه، دار الفكر، دمشق، سوريا،ط1، 2014م،ص 159.

(8) ينظر، المرجع نفسه، ص 1162 - 1163.

(9) موقف البوطي من السياسة مشابه لموقف مالك بن نبي، حيث يرى أن العمل الدعوي الإصلاحي لا بد أن يكون بعيدا عن أوحال السياسة، لأنها ستلطخ و تفسد مسيرته. ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ط، 1986م، ص30.

(10) التغيير مفهومه و مرجعياته، أحمد الزقاقي (ندوة التغيير في فكر عبد السلام ياسين)، 13 ديسمبر 2014م، متاحة على الرابط التالي: yassine.org/ar/document/274.shtml

(11) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 19.

(12) المرجع نفسه، ص 20.

(13) ينظر، أسوالد أشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج1، ص 12.
(14) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، (مرجع سابق)، ص 12.
(15) ينظر، المرجع السابق، ص 11
(16) ينظر، محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة في القرآن، (مرجع سابق)، ص 18- 21.
(17) البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص 24 و ما بعدها.
(18) المرجع نفسه، ص 33.
(19) ينظر، المرجع نفسه، ص35.
(20) ينظر، محمد سعيد رمضان البوطي، وجودت سعيد، التغيير مفهومه و طرائقه. ندوات الفكر الإسلامي المعاصر 2، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص7.
(21) البوطي، من سنن الله في عباده، (مرجع سابق)، ص37.
(22) البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، (مرجع سابق)، ص 160.
(23) المرجع نفسه، ص 162، 163.
(24) المرجع السابق، ص12.
(25) برغوث عبد العزيز بن مبارك، المنهج النبوي في التغيير الحضاري، كتاب الأمة، العدد 43، الدوحة، قطر، 1995م، ص 40.
(26) ينظر، البوطي، من سنن الله في عباده، ص 80 – 90.
(27) البوطي، من المسؤول عن تأخر المسلمين، ص 19.
(28) ينظر، محمد سعيد رمضان البوطي، باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، سلسلة أبحاث في القمة، العدد 1، ص 6، 7.
(29) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية(مرجع سابق)، ص 160.